هذا ما فعلت يداك..!

فاديا جبريل

تثير الثورة الشعبية التي تجتاح الشارع المصري وتقودها جموع الشباب الغاضبين أسئلة لابد من الوقوف عندها، ذلك أن هذه الثورة التي اشتعلت وعمّدتها دماء الشباب وتضحياتهم، كانت في تجلياتها وأزمنتها المختلفة نتاج تراكم كبير، امتد منذ تحييد مصر عن دورها القومي والعروبي إثر توقيع اتفاقية كامب ديفيد، وتسليم مفاتيح القاهرة سياسياً واقتصادياً للسيد الأمريكي الذي اختصر الدور المصري بمساعدات اقتصادية أذلّت النظام الحاكم وقيّدته وجعلت منه تابعاً صغيراً ينفذ أجنداتها في تفتيت الصف العربي وزيادته انقساماً وتشرذماً.

ولعلّ في طالع هذه الأسئلة: هل عرّت الثورة التي مازلنا نعيش تفاعلاتها حتى اللحظة، وعبّرت شئنا أم أبينا عن إرادة جماهيرية عارمة مشبعة بالحياة والحرية إلى حدّها الأقصى، النظام الاستبدادي وكشفت هشاشته وقد تخلى عنه حلفاؤه الأمريكان والصهاينة، مثلما تنصلوا قبلاً من استقبال الرئيس التونسي المخلوع زين العابدين بن علي، بل وأغلقوا حتى مجالاتهم الجوية في وجهه؟.

أما السؤال الذي يفرض نفسه أكثر في هذه المرحلة الحرجة فهو: هل اتعظت واقتنعت الأنظمة التي ارتضت أن تكون تابعة للغير أن حبل "العمالة" قصير جداً جداً، وأن الابتعاد عن المصلحة الوطنية والقومية، والحدّ من حرية الشعب، وقمع تطلعات الشباب وممارسة كل أشكال القهر والإلغاء لهم ولدورهم الحيوي في تقرير مصير بلادهم، سيودي بهم إلى "مزبلة" التاريخ؟.

إن ما نراه اليوم هو الاحتقان ذاته الذي اعترى الشارع العربي من المحيط إلى الخليج، يوم سكتت هذه الأنظمة الخانعة المستبدة عن العدوان الإسرائيلي على لبنان عام ٢٠٠٦ وعلى غزة المحاصرة عام ٢٠٠٨، وعن احتلال العراق وتقسيمه إلى كانتونات طائفية وعرقية، في حين أن دولاً بعينها أعلنت أن المقاومة هي الرد الطبيعي لمواجهة العدوان والسبيل الوحيد لاسترجاع الكرامة، وأن وحدة الصف العربي ومنح الشعب كل الإمكانات للتعبير عن رأيه في رفض كل أشكال التبعية هي من يجسر الهوة بين النظام السياسي وآمال جماهيره التي لا تتوقف بالتأكيد عند لقمة الخبز أو فرصة العمل.

ولنتذكر جميعاً كيف قسّمت الولايات المتحدة العالم العربي يومها إلى معسكرين واحد معتدل لأنه رضي بالذل والهوان، والآخر ممانع لأنه يرفض سياستها المنحازة لإسرائيل.

لقد أعادت ثورة الياسمين في تونس الخضراء، كما سمّاها بعض الساسة والمحللين السياسيين، وانتفاضة الشعب المصري إلى الأذهان النظرية التي تعاين وتناقش بكثير من الجدل السياسي العلاقة بين الحاكم والمحكوم، مؤكدة أن النظام السياسي مهما بلغ من الإخلاص "للديمقراطية" والدعوة لها سيتحوّل تحت هذه اليافطة إلى نظام ديكتاتوري ما لم يتحسّس عن قرب آلام الطبقة المحكومة ويلبي تطلعاتها المشروعة، إذ أن التحولات السياسية والمعادلات الدولية قد أوقعت بعض أصحاب السلطة في غوايتها، فما عادوا يفرقون بين المصلحة الوطنية العليا، وبين تحقيق مكانة دولية زائفة لهذا النظام أو ذاك الذي لن تحميه كل صنوف التبعية من الانهيار والتهاوي تحت أقدام الجموع الغاضبة.

لكل نظام عميل مستبد نهاية تقول: هذا رد الجماهير وهذه صرخة الحرية على ما فعلت يداك.